

في الليل الموحش العتم كانوا يتمترسون خلف الأكياس الرملية على الشاطئ، أيدיהם ممسكة بالبنادق العتيقة (أبو فتيل) وبالسيوف الحادة، وونيسهم الوحيد موسيقى تبعثها الرياح الخريفية عبر أمواج البحر. وهناك بعيداً بعيدها تتتصب على الرمال البيوت السعفية والطينية – وأخر أطلالها هذا الجدار تخزن صدى البكاء والعويل على القتلى والجرحى بتلك النيران، يرميها ذلك الشيء المخيف الرابض في كبد البحر. كان الوحش يرسل جراثيمه بين الحين والآخر، عبر قوارب تجذيف تتسلل إلى الشاطئ وتنشر الذعر والخوف. الرجال صامدون يحركهم مصير واحد، فالشهادة مطلب في مواجهة الغريب الذي جاء ينهب ويسرق ابتسامة تأبى أن تفارق الأرض الرائحتها عطاء دائم، ودروبها خطوات العاشقين في الليالي القمرية. وفي تلك اللحظة وصلت لأهناً بالراحة بعد سهر الليالي في الحفر الرطبة. امتلأت السكك السعفية بالروائح العفنة. أبدت الكلاب استياءها للأعمال القدرة وهي تجري عبر الأزقة باتجاه ذلك الوحش. أحست بالدم يتتصاعد فيعروقي. خطوط بسرعة في الزقاق الرطب المؤدي إلى المنزل السعفي ذي الحضن الدافئ والابتسامة البريئة. أسرعت عندما من أحد القوم وهو يردد (لا حول ولا قوة إلا بالله). وعندما وصلت إلى نهاية الزقاق، وقفـت عندـئـذ ولمـ أـجـرـؤـ علىـ السـؤـالـ فقدـ كانـ الجـوابـ مـاثـلـ أـمـاميـ. تـسـابـقـتـ أـيـديـ القـومـ تـربـتـ عـلـىـ كـتـفـيـ وـتـوـاسـيـنـيـ (أـحـسـنـ اللهـ عـزـاكـ يـاـبـوـ عـبـدـالـلـهـ)، أـمـسـكـتـ أـحـدـ الرـجـالـ بـكـلـتـاـ يـدـيـ وـهـزـزـتـهـ بـعـنـفـ لـزـمـ الرـجـلـ الصـمـتـ مـرـتـمـياـ عـلـىـ صـدـريـ. انـفـجـرـ باـكـيـاـ وـهـوـ يـرـدـ (أـحـسـنـ اللهـ عـزـاكـ فـيـهـمـ). اـغـرـورـقـتـ عـيـنـايـ وـاحـتـضـنـتـهـ بـكـلـ قـوـتـيـ وـضـغـطـتـ بـجـسـمـهـ عـلـىـ صـدـريـ. خـنـقـتـ بـدـاخـلـيـ الـصـرـخـةـ الـحـادـهـ تـقـدـمـ أـحـدـهـمـ: كـنـاـ نـطـفـيـ حـرـيفـاـ. وـإـذـ بـنـاـ نـشـاهـدـ تـصـاعـدـ الـلـهـبـ قـرـيبـاـ مـنـ دـارـكـ. وـإـذـ بـالـنـارـ قـدـ أـتـتـ عـلـىـ الـخـيـمةـ الـتـيـ كـانـ فـيـهـ أـلـوـاـدـ وـأـمـمـ، اـتـكـأـتـ عـلـىـ أـكـتـافـ مـنـ كـانـ بـجـانـبـيـ. حـرـارـةـ الـمـكـانـ تـلـفـحـنـيـ وـتـزـيدـ دـمـيـ غـلـيانـاـ، اـقـرـبـتـ مـنـ الـجـثـثـ الـمـلـقاـةـ عـلـىـ بـقـاـيـاـ السـعـفـ الـذـيـ تـمـ إـنـقـاذـهـ. جـثـوـتـ عـلـىـ رـكـبـيـ وـالـعـرـقـ يـنـضـحـ مـنـ جـسـدـيـ بـغـزـارـةـ. نـزـعـتـ الـغـطـاءـ بـبـطـءـ وـإـذـ بـرـائـحةـ الـلـحـمـ الـمـحـتـرـقـ تـخـنـقـنـيـ.

نهضـتـ وـاقـفـاـ عـلـىـ قـدـمـيـ الـمـرـجـفـتـيـنـ. تـنـاـولـتـ بـيـدـيـ حـفـنـةـ مـنـ الرـمـادـ السـاخـنـ. أـحـسـتـ بـحرـارـتـهـ وـأـنـأـمـدـهـ لـلـرـجـالـ وـالـأـلـمـ يـتـفـجـرـ فـيـ وـيـفـتـكـ بـأـوـصـالـيـ وـتـنـدـفـقـ مـنـ عـيـنـيـ دـمـوعـ مـاـ لـهـ مـنـ قـرـارـ: وـاخـتـنـقـتـ بـالـشـيـعـ وـالـغـضـبـ، كـيـفـ أـقـولـ لـهـمـ إـنـ هـذـهـ الـقـبـضـةـ مـنـ الرـمـادـ هـيـ الـحـيـاةـ الـتـيـ خـنـقـتـ، وـأـغـانـيـ الـمـرـاجـيـعـ وـضـحـكـاتـ الـعـاشـقـيـنـ وـالـسـمـارـ فـيـ الـلـيـالـيـ الـجـمـيـلـةـ وـقـدـ تـحـولـتـ رـمـادـاـ أـسـوـدـ؟ اـنـشـغـلـنـاـ فـيـ إـعـدـادـ الـجـثـثـ لـدـفـنـهـاـ فـيـ الصـبـاحـ الـبـاـكـرـ بـعـدـ صـلـةـ الـغـائـبـ، اـنـفـرـتـ بـعـدـهـاـ عـلـىـ كـوـمـةـ مـنـ الرـمـادـ عـلـىـ بـعـدـ خـطـوـاتـ مـنـ الشـاطـئـ. تـدـاعـتـ فـيـ مـخـيـلـتـيـ صـورـةـ الـأـمـ وـالـأـلـوـادـ وـالـحـكـاـيـاتـ الـحـلـوـةـ عـلـىـ (ـالـمـنـامـةـ)ـ الـمـزـرـوـعـةـ وـسـطـ دـلـكـ الـمـنـزـلـ. اـفـرـشـتـ قـطـعـةـ قـمـاشـ هـنـدـيـةـ كـنـتـ أـضـعـهـاـ عـلـىـ رـأـسـيـ (ـغـثـرـةـ). زـرـعـتـ وـجـهـيـ فـيـ حـضـنـ الرـمـادـ. ثـمـ اـسـتـلـقـتـ وـعـيـنـايـ مـشـدـودـتـانـ تـجـاهـ دـلـكـ الـوـحـشـ، اـنـهـالـتـ مـطـرـقـةـ الـأـفـكـارـ عـلـىـ رـأـسـيـ (ـمـبـارـكـ...ـ الشـاحـوـفـ)...ـ أـجـلـ الشـاحـوـفـ. لـاـ بـدـ أـيـرـحلـ قـبـلـ أـنـ أـوـارـيـهـمـ التـرـابـ). حـيـثـ يـرـسـوـ شـاحـوـفـ مـبـارـكـ الـذـيـ اـتـخـذـ مـنـ مـسـكـنـاـ وـوـسـيـلـةـ لـرـزـقـهـ. رـكـضـتـ عـبـرـ الـظـلـمـةـ فـوقـ الـأـحـجـارـ وـبـقـاـيـاـ عـظـامـ الـأـسـمـاـكـ. تـرـاءـيـ لـيـ الشـاحـوـفـ يـتـرـاـقـصـ مـعـ الـأـمـوـاـجـ الـصـغـيرـةـ، لـفـتـيـ نـسـمـاتـ الـخـرـيفـ الـآـتـيـةـ مـنـ الـبـرـارـيـ وـأـنـأـمـدـهـ مـنـ نـوـمـهـ مـرـعـوـبـاـ عـلـىـ أـثـرـ اـرـطـاطـ الـشـاحـوـفـ بـرـمـالـ الشـاطـئـ. وـثـبـتـ عـلـىـ (ـفـنـةـ)ـ وـنـزـلـتـ فـيـ (ـخـنـ)ـ وـأـخـذـتـ أـبـحـثـ عـنـ سـكـينـ بـيـنـ أـكـوـامـ (ـالـشـباـ).ـ منـ...ـ أبوـ عبدـالـلـهـ. تـنـاـولـتـ طـرـفـ الـقـمـاشـ الـذـيـ كـانـ يـلـتـحـفـ بـهـ مـبـارـكـ وـمـسـحـتـ السـكـينـ مـنـ بـقـاـيـاـ الـأـسـمـاـكـ وـالـأـعـشـابـ الـبـرـيـةـ. أـتـرـىـ دـلـكـ الـوـحـشـ الـذـيـ اـنـهـالـ عـلـىـ بـنـيـرـانـهـ الـمـحـرـقـةـ. سـكـتـ مـبـارـكـ وـلـمـ يـرـدـ بـكـلـمـةـ وـاحـدـةـ، وـكـانـهـ شـعـرـ أـنـ الـأـمـرـ لـاـ يـعـدـوـ أـنـ يـكـونـ دـعـاـةـ عـابـرـةـ.ـ وـكـيـفـ يـاـ بـوـ عـبـدـالـلـهـ وـهـوـ يـدـمـرـ كـلـ شـيـءـ وـهـاـ قـدـ مـرـتـ عـشـرـةـ أـيـامـ وـلـمـ يـبـقـ مـنـ الـبـلـدـ إـلـاـ أـطـلـالـهـ. وـضـعـتـهـ عـلـىـ السـطـحـ الـأـمـامـيـ. وـدـفـعـتـ بـالـشـاحـوـفـ إـلـىـ أـعـمـاـقـ الـبـرـ.ـ مـاـ عـلـيـكـ يـاـ مـبـارـكـ الـأـنـ إـلـاـ أـنـ تـوـصـلـنـيـ إـلـىـ دـلـكـ الـوـحـشـ.ـ أـعـرـفـ أـنـ الشـاحـوـفـ صـغـيرـ وـالـأـمـوـاـجـ بـدـأـتـ تـرـفـعـ، لـكـنـهـاـ الـفـرـصـةـ الـوـحـيـدـةـ الـتـيـ سـتـسـاعـدـنـاـ لـلـوـصـولـ بـقـرـبـهـ دـوـنـ أـنـ يـشـعـرـوـاـ. اـسـتـمـرـ فـيـ التـجـذـيفـ وـلـزـمـ الـصـمـتـ حـتـىـ نـصـلـ.ـ بـدـأـنـاـ نـضـرـبـ تـلـكـ الـمـجـارـيفـ بـخـفـةـ وـتـنـاسـقـ وـالـشـاحـوـفـ يـمـخـرـ عـيـابـ الـمـيـاهـ بـأـنـسـيـابـ. خـرـجـنـاـ إـلـىـ عـرـضـ الـبـرـ، حـيـثـ الـأـمـوـاـجـ السـرـيعـةـ الـانـكـسـارـ، وـاسـتـمـرـ الشـاحـوـفـ بـالـاـنـزـلـاقـ وـسـطـ الـصـمـتـ حـتـىـ اـقـرـبـنـاـ. يـتـرـاءـيـ لـنـاـ عـبـرـ الـأـفـقـ كـاـنـهـ الـجـبـلـ الـمـارـدـ. اـبـتـعـدـنـاـ قـلـيـلاـ حـتـىـ يـهـجـعـوـاـ لـلـنـوـمـ.ـ لـمـ تـخـبـرـنـيـ يـاـ بـوـ عـبـدـالـلـهـ عـمـاـ أـنـتـ مـقـدـمـ عـلـيـهـ؟ـ اـسـمـعـ يـاـ مـبـارـكـ بـعـدـ أـنـ يـنـامـوـاـ سـأـسـبـحـ حـتـىـ دـلـكـ الـوـحـشـ.ـ أبوـ عبدـالـلـهـ إـنـ هـذـاـ لـجـنـونـ.ـ يـقـولـنـ إـنـهـمـ أـقـوـيـاءـ وـأـبـدـانـهـمـ حـمـراءـ وـمـكـتـمـلـوـ الـبـنـيـةـ وـإـنـهـمـ يـمـلـكـونـ الـمـعـرـفـةـ بـكـلـ شـيـءـ، وـهـلـ تـسـتـكـثـرـ عـلـيـ هـذـاـ الـعـمـلـ وـالـرـجـالـ يـقـدـمـونـ أـرـواـهـمـ؟ـ حـالـمـاـ أـنـزـلـ اـبـتـعـدـ بـالـشـاحـوـفـ وـعـدـ إـلـىـ الشـاطـئـ، وـلـاـ تـخـبـرـ أـحـدـاـ وـأـنـاـ سـأـتـدـبـرـ أـمـرـيـ وـأـعـودـ سـابـحاـ. رـائـةـ الـحـرـيقـ وـالـرـمـادـ السـعـفـيـ تـتـفـاعـلـ بـدـمـيـ وـتـثـيـرـ فـيـ عـطـشـ الـلـحـظـةـ الـتـيـ سـأـطـفـيـ فـيـهـ نـارـ الـخـرـابـ. خـلـعـتـ الـفـانـيـلـةـ وـالـوـزـارـ).ـ لـبـسـتـ سـرـوـالـ مـبـارـكـ الـذـيـ يـسـتـخـدـمـهـ فـيـ الـغـوـصـ، نـزـلـتـ إـلـىـ الـمـاءـ بـعـدـ أـنـ ثـبـتـ السـكـينـ بـالـحـزـامـ الـذـيـ هـوـ عـبـارـةـ عـلـىـ خـيـوـطـ صـوـفـيـةـ مـحـاكـةـ بـإـقـانـ، تـقـدـمـتـ سـبـاحـةـ عـبـرـ تـلـاطـمـ الـأـمـوـاـجـ. سـرـتـ فـيـ رـعـشـةـ عـنـدـمـاـ لـامـسـتـ رـجـلـيـ هـيـكـلـهـ الـحـدـيـدـيـ الـبـارـدـ. لـكـنـ سـرـعـانـ مـاـ اـسـتـدـرـكـتـ إـحـسـاسـيـ أـنـ مـبـارـكـ يـرـاقـبـنـيـ. بـعـدـ أـنـ اـقـتـنـصـتـ فـرـصـةـ نـوـمـهـ جـمـيـعـاـ. تـسـلـقـتـ بـوـاسـطـةـ حـبـلـ الـمـرـسـاـةـ وـضـرـبـاتـ قـلـبـيـ تـزـدادـ

قوة، وبعد جهد مشوب بالحذر وضعت قدمي على السطح. وهو يتحرك في الظلام جيئة وذهاباً في خطوات منسقة ووقد أقدمه بثير في الرعب. تقدمت إلى (الغمارة) وإذا بي أشاهد حارساً على بابها وهو أمر لم أكن أتوقعه. افترسي الخوف بيد أنه لم يكن لي خيار. تسللت إليه بحذر وبادرته بضربي قوية بالسكين في صدره. كتمت أنفاسه بيدي الأخرى وسقط متکأً على ذراعي. دخلت بعدها الغرفة وإذا بجسد رجل ضخم البنية طويل القامة، سيطر على الخوف وتوجست في حقيقته. ربما لا يكون القائد بعينه. صور المآسي والحرائق والأطفال اليتامي والمراجيح التي شنتت عليها الأغاني. هويت بيدي المرتجمة بالسكين على صدره، وحبست أنفاسه بمكدة قطنية منعاً للضوضاء والصرخ. شعر الحارس بالأمر وشهادته يقترب من خلال الأفق البعيد. أسرعت باتجاه الباب متعثراً بأكمام الحبال. قفزت إلى البحر غائصاً في الأعماق وهواجس الخوف والارتكاك تملك مني النواصي. وحالما طفوت إلى السطح ألمطرني الجنود برصاص بنادقهم. فقدت على إثرها قواي، غير أنني ظللت أصارع الأمواج وألم الجرح حتى ارتبطت بالشاطئ، زحفت على الرمال متلبساً بهستيريا لم أحتملها. حملقت بالوجه المحيطة. وإذا بمبارك واقف والإبتسامة تملاً ثغره ودموعه الساخنة تنثال على وجهه. امتدت أيدي القوم وعيارات الأسى تعلو الأفواه المكلومة، حملوني إلى الحي الحزين والجرح ينزف بغزاره. كأني بالكلمات المحفورة على الجدار القديم تتحرك، وتنطق لكل الأجيال أن هذا الدار يعرف حكاية أبو عبدالله. وتحته تم غسل جثة أبو عبدالله. وتحته أيضاً قال أبو عبدالله للرجال (ألم أقل لكم إن الوحش لا بد أن يرحل). وتحت هذا الجدار احتضنت أبو عبدالله، وبكيت على صدره كثيراً عندما شاهدت الوحش يرحل. وأنا الآن أناهز التسعين عاماً ولا يحلو لي ظلل للراحة إلا. والقوم اليوم يسخرون مني ويطلقون علي «مبارك عاشق الجدار القديم» ولا يدركون أنه على هذا الجدار